SAM Rights & Liberties

رابطة أمهات المختطفين
Abductees' Mothers Association

Justice4Yemen Pact
ميثاق العدالة لليمن

DT Institute

صوت الناجين

info@samrl.org

www.samrl.org

مارس 2026

SAM
Rights & Liberties
رابطة أمهات المختطفين
Abductees' Mothers
Association
Justice4Yemen Pact
ميثاق العدالة لليمن
DT Institute

منظمة سام للحقوق والحريات

منظمة حقوقية يمنية مستقلة غير ربحية بدأت نشاطها في يناير / كانون الثاني 2016، وحصلت على ترخيص عمل في ديسمبر / كانون الأول 2017. تسعى المنظمة إلى رصد وتوثيق انتهاكات حقوق الإنسان في اليمن، والعمل على وقف هذه الانتهاكات من خلال المناصرة بالشراكة مع المنظمات المحلية والدولية، وإحداث وعي حقوقي عبر تنمية الثقافة الحقوقية في أوساط المجتمع، إضافة إلى العمل على محاسبة منتهكي حقوق الإنسان في اليمن بالتعاون مع الآليات الدولية والمنظمات الحقوقية.

رابطة أمهات المختطفين

منظمة حقوقية تقودها نساء، تأسست في إبريل 2016، وتشكلت من مدافعات عن حقوق الإنسان وأمهات وزوجات المعتقلين. تعمل رابطة أمهات المختطفين على رصد وتوثيق حالات الاعتقال التعسفي والاختفاء القسري ورفعها إلى الجهات المعنية، وتهدف إلى بناء ذاكرة حقوقية تحفظ للضحايا حقهم في المساءلة والإنصاف في مرحلة ما بعد الحرب. كما تعمل على إيصال صوت الضحايا في المحافل الوطنية والدولية، والتواصل المستمر مع أصحاب القرار والوساطات المحلية، بهدف الإفراج عن المحتجزين/ات، وتقديم الدعم النفسي والاجتماعي للناجين من الضحايا وذويهم.

معهد دي تي (DT Institute)

منظمة غير ربحية ملتزمة بمبدأ "التنمية بطريقة مختلفة". ينفّذ المعهد برامج تنموية عالمية معقّدة في البيئات المتأثرة بالصراع والهشّة والمغلقة، ويموّل مبادرات فكرية رائدة تسهم في تحفيز الابتكار وتحسين حياة الناس من خلال برامج قائمة على الأدلة. ويعمل المعهد بالشراكة مع المجتمعات والقادة لبناء مجتمعات أكثر قدرة على الصمود، وأكثر عدلاً وإنصافاً وشمولاً وديمقراطية، وضمان استدامتها.

برنامج دعم السلام في اليمن من خلال المساءلة والمصالحة وتبادل المعرفة (SPARK) الممول من قبل معهد دي تي

إطار علمي وتطبيقي يهدف إلى نقل مفاهيم العدالة الانتقالية من المستوى النظري إلى الممارسة المجتمعية. يقوم المشروع على تعزيز الوعي والقدرات المحلية لتفعيل آليات العدالة التصالحية والمساءلة وجبر الضرر، بوصفها مدخلاً لتحقيق سلام مستدام يقوم على الحقيقة والإنصاف والمشاركة. ويرتكز على فكرة أن العدالة ليست مساراً قانونياً فحسب، بل عملية اجتماعية وثقافية تسهم في ترميم النسيج الوطني واستعادة الثقة وإعادة بناء الذاكرة الجماعية على أسس الاعتراف والمصالحة.

كُتبت هذه الورقة وتُنشر كجزء من برنامج SPARK.

الفهــرس	2
المقدمــة	3
القصة الاولى	4
القصة الثانية	7
القصة الثالثة	10
القصة الرابعة	14
القصة الخامسة	18
النهايــة	21

المقدمة

تجمع القصص الخمس التي يوثقها هذا الإصدار، بين تنوّع الضحايا ووحدة المصير: مصوّر صحفي خرج يوثّق الحقيقة فعاد بجسدٍ مثقلٍ بالفقد، امرأة أنهكها النزوح وخسرت شقيقها وزوجها ومنزلها، طفلة كانت تحلم بمقاعد الدراسة فسبقتها الألغام إلى جسدها، أبٌ يعيش على أمل خبرٍ يبدّد عتمة الإخفاء القسري، ومزارعٌ كانت أرضه مصدر رزقه فإذا بها تتحول إلى ساحة حرب تُسلب فيها الحقول كما تُسلب البيوت. تختلف الحكايات في تفاصيلها، لكنها تلتقي عند لحظة واحدة: لحظة انكسار الحياة الآمنة، وانقلابها إلى مسارٍ مثقلٍ بالخسارات.

لم يكن هؤلاء أطرافًا في صراع.. هم مدنيون دفعتهم الحرب إلى واجهتها دون اختيار. لكلٍّ منهم ماضٍ كان يمضي بإيقاعه الطبيعي، وأحلامٌ لم تكن تتجاوز حدود العمل والبيت والدراسة والأسرة. لكن الحرب لم تفرّق بين كاميرا ودفتر، ولا بين محراث وبيت، ولا بين قلب ينتظر وطفولةٍ لم تكتمل. تدفقت الانتهاكات عليهم بأشكال متعددة؛ قتلٌ وإصابة، نزوحٌ وتشريد، إخفاءٌ قسري وحرمانٌ من الحقوق الأساسية، فيما ظلّ كثيرٌ من المسؤولين بعيدين عن المساءلة، وبقي الضحايا في مواجهة آثارٍ تمتد إلى الجسد والروح معًا.

يأتي هذا العمل ضمن مشروع "سبارك" الذي تنفّذه منظمة سام للحقوق والحريات بالشراكة مع معهد دي تي (DT)، في مسعى لتعزيز مسارات العدالة الانتقالية وترسيخ حق الضحايا في الحقيقة والإنصاف. وقد استند إلى مقابلات مباشرة وإفادات موثقة وفق معايير مهنية وأخلاقية، مع مراجعة دقيقة للمعلومات عبر تقارير حقوقية ومصادر موثوقة، مع الأخذ في الاعتبار، الحرص الكامل على صون كرامة الضحايا وخصوصيتهم، ونقل أصواتهم كما أرادوا أن تُسمع.

ويمثل هذا الإصدار امتدادًا لمسارٍ توثيقي بدأته المنظمة في أعمال سابقة، من بينها إصدار تحت اسم "أشد العذاب" والذي نشرته المنظمة سنة 2024، وسعت من خلاله إلى كسر حاجز الصمت والخوف، وفتح مساحة للبوح بما ظل حبيس الصدور لسنوات. فالعدالة تبدأ بالإنصات، والإنصاف يبدأ بالاعتراف. ومن هنا، يحاول هذا العمل الاقتراب من حياة الضحايا، واستعادة ماضيهم الطبيعي، ليضعه في مواجهة حاضرٍ فرضته الحرب قسرًا، ويكشف حجم التحوّل القاسي الذي أصاب الإنسان قبل المكان.

وتعد هذه القصص، وثائق أخلاقية تذكّر بأن بناء السلام الحقيقي يقوم على مواجهة الحقيقة، ومساءلة المسؤولين، وضمان عدم تكرار المأساة. فحين يُعاد الاعتبار للضحايا، ويُسمع صوتهم بوضوح، يصبح الطريق إلى العدالة الانتقالية أكثر رسوخًا، ويغدو الأمل بإصلاح ما أمكن من الخراب خطوةً واقعية نحو مستقبلٍ أكثر إنصافًا.

أيمن محمد.. الحرب تلتهم الأرض وتنسف البيت

لم يكن مقاتلًا، ولم يحمل سلاحًا في حياته، ولم يكن يومًا طرفًا في حرب. كل ما كان يملكه أرضًا يزرعها، وبيتًا بناه حجرًا حجرًا. ومع ذلك، وجد نفسه فارًّا مع الآلاف من قريته، يسير في طريق لا تسير فيه إلا الحيوانات المفترسة، تاركًا خلفه كل ما كان يعني له الحياة.

أيمن (اسم مستعار) ، أربعيني من منطقة تبيشعة في قرية جبل حبشي، اعتاد أن يعيش في قريته حياة مستقرة وهادئة، يعتمد أيمن الزراعة كمصدر رزقه الوحيد، وهو حال معظم سكان القرية، قبل أن تأتي الحرب لتقلب حياته رأسًا على عقب.

مزارع أعزل

مع بداية عام 2017، وصلت الحرب إلى القرى المجاورة لتبيشعة. كان أيمن يسمع عنها ويخشى أن تمتد إلى قريته. لكن ما كان يخشاه تحقق؛ تمركز قناصة حوثيون في التباب المرتفعة المحيطة بالقرية، وأطلقوا النار على كل ما يتحرك. في ذلك الوقت، كان أيمن على موعد مع جني محصوله الزراعي. كان يزرع الطماطم، والفلفل الأخضر، والباذنجان، والبامية. استدان من صديق له مبلغًا ماليًا، على اتفاق يقضي بسداده بعد بيع المحصول، لكن الخوف من القنص منع أيمن ومزارعي القرية من جني محاصيلهم. آلاف الريالات من الجهد والمال ذهبت دون عائد، وتحول الموسم الزراعي بأكمله إلى خسارة مؤلمة.

ثم جاء الخبر المُفزع: أحد المزارعين في القرية، والذي كان صهرًا لأيمن وصديقه، قُتل على الأرض نفسها التي زرعها طوال حياته، برصاص قناصة الحوثيين. كان خبر مقتله صدمة صارخة لكل سكان القرية، وتحذيرًا واضحًا بأن حياتهم لم تعد آمنة، وأن أي حركة أو خروج من المنزل قد تكون الأخيرة. يقول أيمن: "توقفنا عن العمل في الأرض خوفًا على أرواحنا. تلف محصولنا، وكانت تلك خسارة مالية ومعنوية في آن واحد. كل تعبنا، وكل ساعات العمل تحت الشمس والحر، ذهبت سدى."

لم يكن هذا الحادث نهاية المخاطر، بل كان بدايتها فقط. فقد فرضت الحرب قيودًا صارمة على تحركات سكان القرية، وأصبحت الطرق المؤدية إلى المناطق المجاورة، مثل الربيعي ومفرق شرعب، مغلقة تمامًا أو محفوفة بالمخاطر. كان السكان يعتمدون على هذه الطرق للوصول إلى الأسواق وشراء الطعام والماء، وكانت بمثابة شريان حياتهم الأساسي. يقول أيمن : "جلسنا في بيوتنا لساعات طويلة، بلا ماء، وبلا طعام، وبلا قدرة على الخروج. كل شيء حولنا أصبح مخيف؛ لا حياة، ولا أمل قريب."

نزوح قسري

ومع كل يوم يمر، كان شعور أيمن بالضيق والغصة يزداد. كان ينتظر انسحاب القوات من القرية، والسماح له بالعودة لجني ما تبقى من محصوله، لكنه كان يراقب الاشتباكات وهي تقترب أكثر فأكثر من قلب القرية. وبعد أسبوع من الحصار والصمت المخيف الذي ملأ البيوت، وصل إليهم خبر مفاجئ. عبر مكبرات الصوت، أعلنت القوات الحوثية أن أمام السكان مهلة يوم واحد فقط للنزوح والمغادرة. يقول أيمن: "سمعنا الصوت ينادي الجميع: لديكم مهلة يوم واحد فقط للنزوح والمغادرة. من أراد أن يخرج بأمان، فليخرج اليوم. شعرنا بالذهول مما يحدث، كان الأمر أشبه بأن الأرض نفسها تنهار تحت أقدامنا. لكن لم يكن لدينا خيار سوى الرحيل، وإلا كنا معرضين للموت في أية لحظة"

في اليوم التالي، خرج أيمن وعائلته مع بقية سكان القرية، قرابة خمسة آلاف نسمة، متجهين إلى المجهول. يصف أيمن ذلك اليوم: "كأننا في المحشر، كأننا في يوم القيامة؛ كل شيء من حولنا موحش ومخيف. الطريق الوحيد الذي كان يمكننا المرور منه كان وعرًا وصعبًا للغاية، ويعرفه السكان المحليون باسم طريق الوحوش. لم يكن صالحًا للمشي بالنسبة للبشر العاديين، بل للقرود والحيوانات البرية فقط."

غادر السكان القرية، وكل واحد منهم كان يحاول حمل ما يستطيع من ملابس وطعام وبعض الضروريات البسيطة. أما من حاول إنقاذ مواشيه، فقد اضطر معظمهم إلى بيعها بأسعار بخسة في الطريق، أو إطلاقها للحرية، غير قادرين على حملها في ذلك الطريق الوعر والصعب. يستذكر أيمن مشهد الرحلة: "كنا نمشي لساعات طويلة دون توقف. كنا نسمع صدى أصوات الأطفال وهم يبكون، والمسنين يئنّون من التعب، والنساء يحاولن الحفاظ على شجاعتهن رغم الخوف الذي يملأ قلوبنا. لم يكن هناك مكان للاختباء من الشمس الحارقة، ولا ماء يروي العطش الذي ازداد مع كل خطوة. كل شيء من حولنا كان صعبًا وقاسيًا، والطريق كان طويلًا."

كانت رحلة النزوح تلك، بالنسبة أيمن ، فقدانًا لكل ما أحب: لكل ذكرياته، ولكل جهده الذي بذله في الأرض والمزرعة. كان يشعر بالغربة والخوف والفراغ في آنٍ واحد، لكنه كان يعلم أن النجاة والبقاء على قيد الحياة أصبحا أولوية قصوى. لم يكن أمامه سوى المضي قدمًا، خطوة بعد خطوة، مع أمل ضئيل في العودة إلى قريته التي غدت حلمًا بعيد المنال.

وصل أيمن وعائلته أخيرًا إلى منطقة الدحي شمال غرب مدينة تعز. لجؤوا هناك إلى مدرسة اليرموك مع عدد من أسر القرية. بعض الأسر تمكنت من الانتقال للسكن مع أقاربها، أما أيمن وعائلته فمكثوا في المدرسة لفترة قصيرة، ثم انتقلوا للسكن عند أحد أصدقائه، إلى أن تمكن لاحقًا من استئجار دكان صغير لإيواء عائلته. لم تكن الحياة في المدينة سهلة؛ فمزارع لم يمضِ عمره في التجارة أو العمل الحضري يجد نفسه مضطرًا لكسب لقمة العيش بطرق مختلفة، بعيدًا عن الأرض التي كانت مصدر رزقه.

استأجر علي دراجة نارية، وبدأ يخرج منذ الصباح الباكر، يقف عند إحدى الجولات في انتظار ركاب لنقلهم، ثم يعود إلى عائلته بما تيسّر له من مال يشتري به قوت يومه. وفي خضم محاولاته للتأقلم مع حياته الجديدة، جاءه خبر قلب حياته مجددًا، وكأن المصائب لا تأتي فرادى؛ إذ زرع مقاتلو الحوثي شبكة ألغام في منزل أيمن ومنزل والده.

تفجير منزله

يقع منزل أيمن على تلة مرتفعة تطل على بقية القرية. يقول أيمن إن هذا الموقع كان سببًا في صعود القوات الموالية للحكومة الشرعية إلى المنزل نهارًا، حيث كانت تتبادل إطلاق النار مع القوات الموالية لجماعة الحوثي، ثم تنسحب مع غروب الشمس. استغلت قوات الحوثيين ذلك، فتسللت في المساء وزرعت شبكة من الألغام في منزل أيمن ومنزل والده، وبعد فترة من الوقت قامت بتفجير المنزلين بالكامل.

شاهد بعض سكان القرى المجاورة الانفجار، وقاموا بتصويره عبر الهواتف من مسافة بعيدة. اتصل صديق أيمن ليخبره بأن منزله قد سُوِّي بالأرض، وأرسل له صورًا لمكان المنزل. يقول أيمن : "لم أستطع تصديق الأمر. بيتنا، الذي بنيته أنا وبيت والدي، دُمِّرا بالكامل. كان الشعور يشبه فقدان أحد أولادي. لم يعد هناك شيء يربطني بالقرية سوى الذكريات."

سمع والده بالخبر، ورأى هو الآخر صور منزله ومنزل ولده. شعر والده بالقهر الشديد. في مساء اليوم الذي شاهد فيه صور الدمار، تقيأ دمًا، وبعدها بأسبوع أُصيب بمرض خطير في القلب، ثم توفي بعد شهرين من الحادثة. شعرت الأسرة بالحزن الشديد، بفقدان أي أمل للعودة إلى قريتهم ومنزلهم، تبعه فقدانهم لوالد أيمن، خاصة وأن والده كان قد اغترب في المملكة العربية السعودية لسنوات طويلة من أجل بناء منزله وتحسينه، المنزل الذي ورثه عن والده. كان الأثر النفسي أشد قسوة بعد وفاة والده. لم يستطع أيمن النوم لأيام، وانهمرت دموعه بلا توقف. شعر بالعجز الكامل، وكأن حياته كلها قد سُلبت منه دون سبب.

SAM Rights & Liberties
رابطة أمهات المختطفين Abductees' Mothers Association
Justice4Yemen Pact ميثاق العدالة لليمن
DT Institute

اعادة بناء منزلي

حتى اليوم، ما تزال الأراضي الزراعية لأيمن وعائلته ملغمة، وكل محاولة للعودة إلى القرية محفوفة بالمخاطر. يقول أيمن إن ما يتجول في بيوت القرية اليوم سوى القرود، أو ما يُطلق عليها محليًا "الرباح". ومع ذلك، حين تنزل القرود إلى القرية، يسمع سكان القرى المجاورة أصوات انفجارات، يكون سببها أن القرود وطأت الألغام التي زرعها الحوثيون في القرية وفي مزارعها. يصف أيمن القرية بأنها أصبحت مقبرة لكل شيء حي، وأن القنص ما زال مستمرًا حتى اليوم.

في نهاية كل يوم، وهو مستلقٍ على فراشه، يفكر أيمن بكل ما حدث له، ويساءل نفسه سؤالًا لم يلق له جوابًا حتى اللحظة: "لماذا حدث كل هذا لي؟ ما الخطأ الذي اقترفته؟" ويأتيه غموض المصير ليزيد السؤال: "ماذا بعد؟"، و "إذا انتهت الحرب سيعود الناس إلى منازلهم، أما أنا إلى أين سأعود؟"

يعيش أيمن اليوم كنازح في مدينة تعز، يحاول تأمين قوت يومه من خلال العمل في خدمات النقل. ويعاني مشاكل في توفير إيجار الدكان الصغير الذي يعيش فيه مع عائلته؛ فقد مضى عام كامل منذ آخر مرة دفع فيها الإيجار. يتذكر دائمًا أنه مزارع لم يشارك في أي قتال، ولم يحمل سلاحًا، لكنه فقد الأرض والبيت والأمان. يطالب أيمن بالعدالة، ومحاسبة من تسبب في تشريده وتدمير منزله، وإعادة بناء منزله. يعلم أن إعادة البناء لن تعيد والده أو سنوات حياته الضائعة، لكنه يرى فيها اعترافًا بالظلم الذي تعرض له.

سارة علي.. سلسلة من الفقد والنزوح

لم تكن الحرب في اليمن حدثًا عابرًا يمرّ ثم سينتهي، بل سلسلة متداخلة من الفقد، تمتد من جيل إلى آخر، وتُعيد إنتاج الألم داخل العائلة الواحدة. في هذه القصة، تتقاطع سيرة سارة علي (اسم مستعار) مع سيرة والدتها في خطٍّ زمني واحد، لكنه موزّع بين مدينتين، وبين فقدين متتاليين: أخٍ في تعز، وزوجٍ في الحديدة. قصتان مختلفتان في التفاصيل، متطابقتان في الجوهر، وكلتاهما تشهدان على الكلفة الإنسانية الباهظة للحرب.

الحديدة: بداية الخطر

كانت سارة تقطن مع أسرتها الصغيرة – زوجها وثلاثة من أبنائها – في شارع التسعين، الواقع في الأطراف الجنوبية الشرقية من مدينة الحديدة. وهي منطقة قريبة جغرافيًا من ميناء الحديدة ومحيط مطاحن البحر الأحمر. هذا الموقع، الذي كان في السابق مصدرًا للحركة الاقتصادية والعمل، تحوّل منذ اندلاع الحرب في اليمن عام ٢٠١٥ إلى منطقة عالية الخطورة، بسبب قربه من منشآت حيوية ذات طابع استراتيجي.

ومنذ عام ٢٠١٦، ومع تصاعد العمليات العسكرية على الساحل الغربي، أصبحت المناطق المحيطة بالميناء والمطاحن عرضة للقصف الجوي المتكرر من طيران التحالف العربي الداعم للشرعية. ووفقًا لشهادة سارة، فإن المنازل القريبة من موقع سكنها، والواقعة بين ميناء الحديدة ومطاحن البحر الأحمر، تعرضت لأضرار مباشرة بفعل القصف. كانت الشظايا تصل إلى البيوت، والزجاج يتحطم، فيما أُصيب بعض الجيران بإصابات مباشرة نتيجة الغارات.

يُعد عام ٢٠١٧ نقطة مفصلية في قصة الأسرة. ففي هذا العام، اشتدت العمليات العسكرية في محيط الحديدة، بالتزامن مع التحضيرات الواسعة لمعركة الساحل الغربي التي تجسدت لاحقًا في ٢٠١٨. خلال هذه الفترة، شهدت المنطقة انقطاعات شبه كاملة للكهرباء، وشحًا أو منعًا شديدًا في المياه، مصحوبًا بإغلاق البقالات ومصادر التموين، ليتحول الوضع إلى حالة حصار غير معلن على الأحياء القريبة من مناطق الاستهداف. تصف سارة تلك المرحلة قائلة: "كنا نعيش بعزلة تامة عن محيطنا، كأننا في صحراء"، إذ أصبح تأمين الاحتياجات الأساسية شبه مستحيل. ومع تزايد الإصابات بين المدنيين في الحي، لم يعد البقاء خيارًا آمنًا.

قرار النزوح

جاء قرار النزوح دون استعداد مسبق أو إمكانيات مالية. كان زوج سارة يعاني من مرض السكري، ومع القلق والخوف المستمرين تدهورت حالته الصحية. أما سارة نفسها، فكانت تعاني من الربو وتعتمد على جهاز بخار أوكسجين لم يعد متوفرًا في ظل انهيار القطاع الصحي، بالإضافة إلى أنها كانت حاملًا أثناء تلك الظروف القاسية. كان الخروج من الحديدة محفوفًا بالمخاطر. الطرق الرئيسية كانت مغلقة أو غير آمنة. تصف سارة لحظة المغادرة بأنها "أشبه بالمعجزة"، إذ لم تتوقع الأسرة أن تتمكن من الخروج بسلام من المدينة.

في أواخر عام ٢٠١٧، غادرت الأسرة الحديدة متجهة إلى تعز. إلا أن تعز نفسها كانت آنذاك تحت حصار خانق من جماعة الحوثي، ما جعل الوصول إليها تحديًا إضافيًا، ويحوّل رحلة النزوح إلى اختبار للنجاة من الخطر المتواصل. وبعد تعذر استخدام الطرق الرئيسية، اضطرت الأسرة إلى سلوك طريق الأقروض الجبلي، وهو طريق وعر وخطير، استُخدم خلال سنوات الحصار كأحد المنافذ القليلة للمدنيين. استغرقت الرحلة قرابة يومين، وسط خوف دائم من الاستهداف أو الحوادث، ومعاناة شديدة للأطفال.

خلال الرحلة، مرض أحد أبناء سارة، الذي كان يعاني أصلًا من شحنات كهربائية في الدماغ وضمور. النزوح القسري، بطبيعته الصعبة، زاد من تدهور حالته الصحية، مما جعل الرحلة تجربة مرهقة جسديًا ونفسيًا للأسرة بأكملها.

الوصول الصعب

وصلت سارة إلى تعز برفقة زوجها وأطفالها، منهكين جسديًا ونفسيًا بعد السفر عبر الطرق الجبلية الوعرة. لم يكن في حوزتهم سوى الملابس التي كانوا يرتدونها، بعدما اضطروا لترك منزلهم وكل ممتلكاتهم خلفهم. اختارت سارة أن تستقر في منطقة الحصب، حيث يقيم والدها ووالدتها وشقيقها الأصغر. هناك، اجتمعت الأسرة من جديد تحت سقف واحد، محاولةً بدء مرحلة جديدة من الحياة بعد النزوح. كان السكن مع العائلة ملاذًا مؤقتًا وفرصة لالتقاط الأنفاس بعد سنوات من القصف والخوف في الحديدة. ورغم أن تعز نفسها كانت تعيش ظروف حرب وحصار، فإن الحصب بدت في تلك الفترة أقل خطورة نسبيًا مقارنة بالمناطق التي كانت تشهد اشتباكات مباشرة.

تنتمي عائلة سارة ـ والدها ووالدتها ـ إلى تعز، وكانت تقطن في الحصب، إحدى المناطق التي ستتحول لاحقًا إلى خطوط تماس مفتوحة. قبل توسع الحرب، كانت العائلة تعيش حياة عادية، تتنقل بين العمل والدراسة والأحلام البسيطة. لكن مع اندلاع المواجهات في تعز عام ٢٠١٥، لم تعد المدينة كما كانت.

مع اشتداد القتال داخل الأحياء السكنية، اضطرت العائلة إلى النزوح إلى إحدى القرى القريبة، في محاولة للنجاة لا أكثر. وبعد عدة أشهر، عادت الأسرة للإقامة مجددًا في الحصب، محاولةً التكيف مع واقع جديد. كانت الحياة أبسط، لكن الخوف حاضر دائمًا، وكانوا ينتظرون "أن يصفو الجو"، أي أن تخف الاشتباكات ويعود شيء من الاستقرار.

خلال هذه الفترة، كان محمد (اسم مستعار) ، الأخ الأصغر لسارة، شابًا في الثانية والعشرين من عمره، يعيش مرحلة الشباب الكاملة: أحلام بالعمل، وبالزواج، وبحياة لم تبدأ بعد، قبل أن تصدمه الحرب بخسائر لا تُعوَّض.

تقول والدة سارة، إنها كانت ترغب في تزويج ابنها والاحتفاء به، كما تفعل كل أم يمنية حين ترى ابنها يكبر أمامها. لم تكن تطلب الكثير؛ فقط أن تراه عريسًا، حيًا، حاضرًا في بيتها، يعيش حياته كبقية الشباب.

فقدانها لشقيقها

مع تراجع نسبي في حدة الاشتباكات، وارتفاع الضغوط عليها من مالك العقار ورغبته في مغادرتها لمنزله، قررت والدة سارة الانتقال مع العائلة بأكملها ـ سارة وزوجها وأطفالها، ووالديها، وشقيقها ـ إلى منزلهم في منطقة المطار القديم. لم يكن المكان آمنًا تمامًا، لكنه بدا أقل خطرًا من ذي قبل. عادت الحياة بحذر، وعادت العائلة إلى بيتها وهي تدرك أن "الهدوء" في زمن الحرب مفهوم نسبي، قد ينتهي في أي لحظة.

لم يكن القرار نابعًا من شعور بالأمان، بل من ضيق الخيارات. فالمطار القديم كان وما يزال من أكثر مناطق تعز اشتعالًا، منطقة اشتباكات مفتوحة وخط نار مباشر. هناك، كانت القذائف تسقط والرصاص الطائش لا يعرف وجهة، ومع ذلك، عاش الناس حياتهم اليومية، لأن الحرب لم تترك لهم بديلًا. كانوا ينامون وهم يعرفون أن الموت قد يزورهم في أي ساعة.

في إحدى الليالي، بعد منتصف الليل، كانت الأسرة نائمة. الهدوء الظاهري كان خادعًا، كما في كل ليالي الحرب. كان الابن محمد، جالسًا على سطح المنزل. لم يكن مقاتلًا، ولا يحمل سلاحًا؛ كان شابًا يبحث عن بعض الهواء أو لحظة هدوء فوق ضجيج الخوف.

فجأة، سقطت قذيفة أُطلقت من مواقع الحوثيين، أصابت السطح مباشرة. الانفجار دمّر المكان، وتضررت خزانات المياه، بينما تطايرت الألواح الشمسية. أصابت القذيفة محمد مباشرة وتناثرت أشلاءه. تقول الأم إن القذيفة سقطت وهم نيام، وإن ابنها كان على السطح حينها، ولم يكن هناك أي إنذار.

كان أول من صعد إلى السطح سارة ووالدها، فصدما من المشهد. نظرت سارة إلى أخيها، ورأته وقد تحول إلى أشلاء. هبّ الجيران إلى موقع الانفجار، ونقلوا محمد إلى مستشفى البريهي، لكنه كان قد فارق الحياة. لم يكن هناك وقت للوداع، ولا فرصة للإنقاذ؛ الموت كان أسرع من كل شيء.

عمّ الحزن منزل الأسرة لأيام طويلة، وتأثر الجميع بفقد محمد. يقول والد سارة، إنه كثيرًا ما يخبر زوجته أن تفتح الباب ليدخل أسامة، وأن تمنحه بعضًا من ملابسه، كأنما يريد استحضار وجوده الغائب. شعرت أم سارة بأسى عميق على ولدها، الذي كانت تعتبره عمودها الفقري، واصفة إياه بأنه كان خدوماً ولينًا، دائم الحذر، ونبهها مرارًا إلى خطورة الإقامة في منطقة المطار، خصوصًا وهي تبعد مئات الأمتار عن خطوط التماس بين قوات الحكومة الشرعية والقوات التابعة لجماعة الحوثي. وكانت الأم تأسف على زوجها، الذي لم يصدق بعد أنه فقد ولده.

أما سارة، فقد شعرت بحزن بالغ على فقدان أخيها محمد الذي كان بالنسبة لها الأخ والصديق في آن واحد. قبل أيام قليلة، كانت تحتفل معه بحفل تخرجه، لكنه أصبح الآن غائبًا تمامًا. إلى جانب ذلك الحزن، تضرر سطح منزلهم بسبب القذيفة، وكانت الأمطار تتساقط إلى مجلس المنزل، مما استلزم أشهرًا لإعادة ترميمه وتأمينه للسكن.

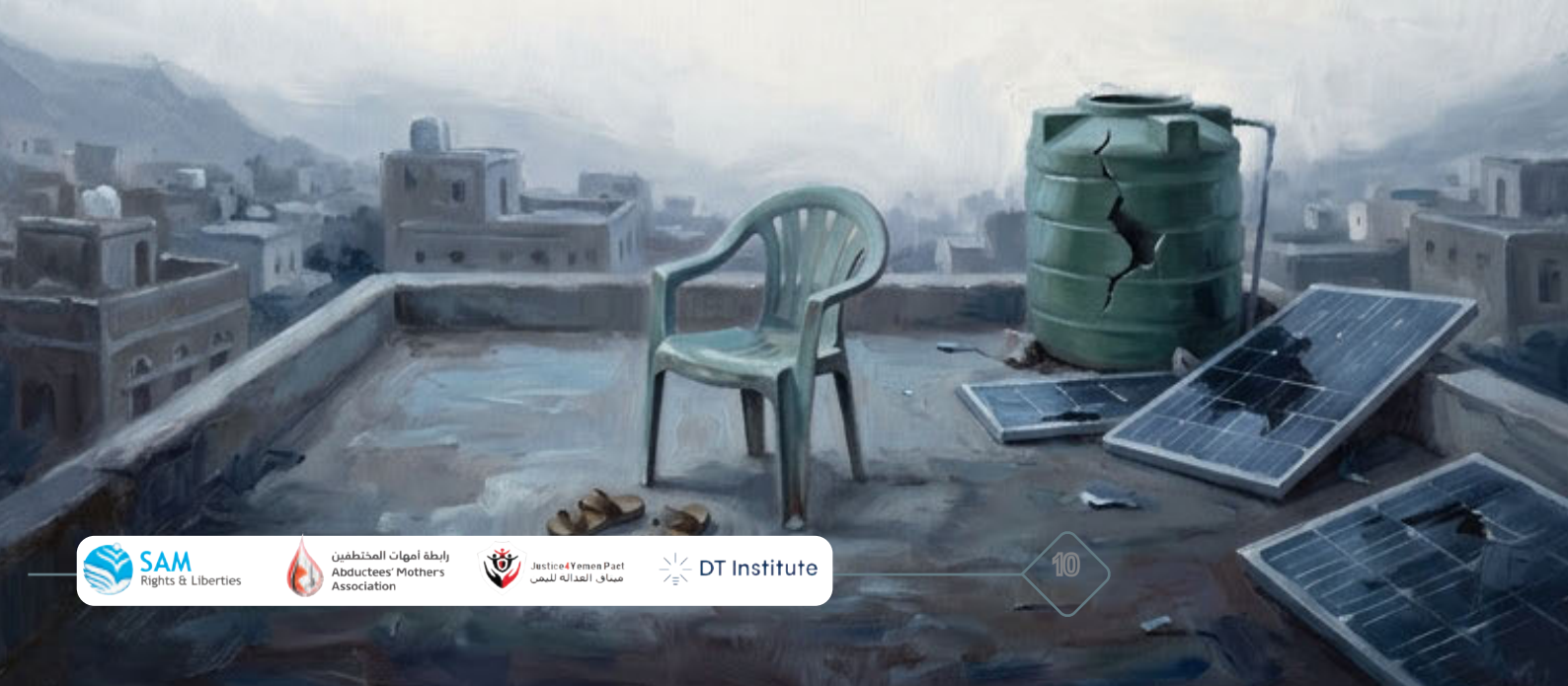

فقدانها لزوجها

مرت السنوات واستقرت الأسرة نسبيًا في تعز، إلى أن قرر زوج سارة العودة إلى الحديدة للعمل في محطة الكهرباء، حيث كان يعمل مهندس تكييف وتبريد قبل الحرب. عاد بحثًا عن لقمة العيش، فطوال مكوثه في تعز لم يتمكن من العثور على عمل في مدينة محاصرة لا توفر فرصًا حتى لأصحاب الخبرة. لذا، عاشت الأسرة على المساعدات وما تيسر من موارد، بينما استمرت آثار النزوح تطاردهم.
كان زوج سارة أيضًا لا يألف مدينة تعز، فهو عاش منذ نعومة أظافره مع أهله في الحديدة، والمنزل الذي يملكه هناك هو ملك لوالديه. بعد النزوح، تعرض المنزل لأضرار جسيمة، ثم استولى عليه الحوثيون، وفق شهادة سارة. لاحقًا، تعرض المنزل لعمليات نهب ممنهجة شملت الأبواب والنوافذ، والأثاث، والخزانات، والألواح الشمسية، وحتى الأخشاب الداخلية.
عند النزوح، لم تتمكن الأسرة من أخذ أي ممتلكات، وخرجت بما ترتديه فقط من ملابس. وحتى اليوم، لم يعد المنزل صالحًا للسكن، ما اضطر أهل الزوج، عند عودتهم إلى الحديدة، إلى الاستئجار بدل العودة إلى بيتهم الأصلي.
قرار زوج سارة بالعودة إلى الحديدة والعمل في محطة الكهرباء جاء بدافع الحاجة المادية، رغم إدراكه الكامل للمخاطر الأمنية، ووسط خوف دائم من تكرار تجربة فقدان الأسرة والممتلكات.
في يوليو/تموز ٢٠٢٤، أعلنت مصادر رسمية وإعلامية عن قصف إسرائيلي استهدف منشآت في مدينة الحديدة، من بينها محطة الكهرباء، في سياق التصعيد الإقليمي المرتبط بالحرب في غزة واتساع رقعة الاستهدافات في المنطقة.
وبحسب ما ورد آنذاك، أسفر القصف عن مقتل ستة أشخاص كانوا في موقع المحطة أو محيطها. كان زوج سارة أحد الضحايا الذين قُتلوا في هذا الاستهداف. شكّل مقتله صدمة كبرى للأسرة، ومرة أخرى، وجدت سارة نفسها أمام خبر الموت. هذه المرة، كزوجة وشقيقة، فقدت أخاها في تعز، وفقدت زوجها في الحديدة. مكانان مختلفان، وسلاحان مختلفان، لكن النتيجة واحدة
بعد مقتل زوجها، عاشت سارة مرحلة أشد قسوة. وجدت نفسها مسؤولة عن أطفالها، تعاني من مرض الربو، وتواجه تبعات نزوح طويل الأمد، وفقدان المعيل، وغياب أي أفق واضح للعودة أو الاستقرار. كان كل يوم يحمل تحديًا جديدًا، وكانت الحياة، كما تقول، اختبارًا دائمًا للبقاء وسط آثار الحرب التي لم تتوقف.

أشياء لا تعوض

تلخّص سارة رؤيتها للحرب بوصفها الجريمة الأكبر التي يرتكبها الإنسان بحق الإنسان، إذ لم تترك لها خيارًا سوى طريق قاسٍ امتلأ بالخسارات والألم. وترى أن العدالة، كما تُطرح اليوم، غائبة ومنقوصة، ولا يمكنها أن تعوّض فقدان شقيقها وزوجها، ولا أن تردّ لأطفالها حقهم في أبٍ غاب بلا ذنب.
وبين أسئلةٍ موجعة وإجاباتٍ تعرف قسوتها مسبقًا، تؤكد أن ما يُسمّى بالعدالة لا يتجاوز كونه أمنيات في بلدٍ أنهكته الحرب، تقول سارة بحزنٍ هادئ: "تعبنا من الوعود، ومن الكلام الكبير الذي لا يتحقق". بالنسبة لها، ما زال جبر الضرر مستحيلًا، فآثار الفقد والدمار أعمق من أن تُمحى بسهولة، وتردّد: "لا شيء يمكن أن يعوضني عن أخي وزوجي، ما الذي يمكن أن يعوض أولادي عن أباهم؟"
ومع ذلك، لا تطلب سارة المستحيل؛ كل ما تتمنّاه، كما تكرّر دائمًا، هو أن تتوقف الحرب: "نريد فقط أن نعيش بسلام، أن يكبر أولادنا دون خوف". تطالب الدولة بأن تتحمّل مسؤوليتها بتأمين راتبٍ يكفل حياة كريمة لأطفالها، وتقول بلهجةٍ تجمع بين الرجاء والإصرار: "لسنا متسولين، هذا حقنا بعد كل ما خسرناه". كما تصرّ على أن يُحاسَب المسؤولون عن القتل والدمار، وأن يُقدّم قادة المعارك والمجرمون إلى العدالة لينالوا جزاءهم، مؤكدة: "إن لم يحاسب من دمّر حياتنا، فبأي عدالة يتحدثون؟". لعل ذلك، في نظرها، يكون خطوة أولى في طريقٍ طويل نحو إنصاف الضحايا وإعادة شيءٍ من الكرامة لمن سُلبت منهم.

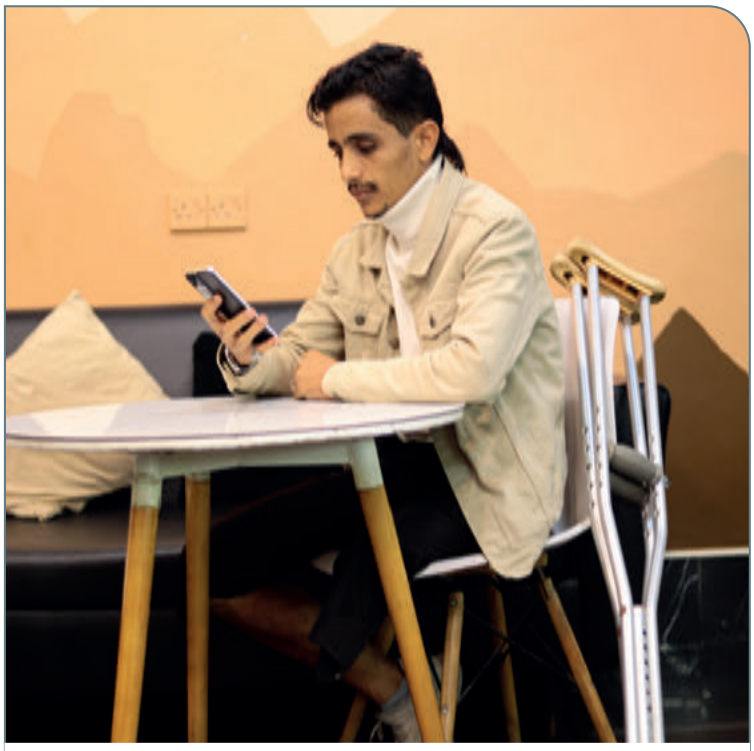

وليد القدسي: شاهد على الحرب وأحد ضحاياها

يصف كثيرون مهنة الصحافة بأنها مهنة المتاعب، لكن هذا الوصف يبدو قاصرًا حين يتعلّق الأمر بالصحافة في زمن الحرب. أن تكون صحفيًا في منطقة صراع يعني أنك تمشي كل يوم على حافة الموت، وأن تحمل الكاميرا في يد، وفي اليد الأخرى كفنك المؤجَّل. يتجاوز الخطر في هذه الأماكن حدود الاحتمال ليغدو واقعًا يوميًا، يتسلّل في التفاصيل الصغيرة: في الطريق، في النظرة، في الصوت الذي يلي الانفجار بثوانٍ.

تعز، المدينة الجبلية المكتظّة بالحياة، تحوّلت منذ مارس ٢٠١٥ إلى مسرح مفتوح للصراع. حين سيطرت جماعة الحوثي على أجزاء واسعة من البلاد، ودخلت القوات الحكومية، المدعومة من التحالف العربي، في مواجهة مفتوحة معها، وجدت تعز نفسها محاصرة من جميع الجهات تقريبًا. أُغلقت الطرق، وشحّ الغذاء، وانقطع الدواء، وأصبح الخروج من المدينة أو الدخول إليها مغامرة غير مضمونة العواقب.

داخل المدينة، لم تكن الجبهات بعيدة عن الأحياء السكنية. كان القصف المدفعي يصل إلى المنازل، واعتلى القناصة الحوثيون أسطح البنايات المرتفعة، يراقبون الشوارع الضيقة، ويحوّلون أي حركة إلى مخاطرة. جعلت الاشتباكات اليومية الزمن نفسه متقطّعًا؛ فصباح هادئ نسبيًا قد ينقلب خلال دقائق إلى جحيم، وليل صامت قد يخترقه صوت انفجار يوقظ المدينة على فاجعة جديدة.

في هذا الواقع المأساوي، كان وليد القدسي واحدًا من أولئك الذين اختاروا أن يكونوا شهودًا. مصوّر صحفي يحمل كاميرته، مؤمنًا إيمانًا عميقًا بأن الصورة قد تكون أبلغ من ألف كلمة. كان يخرج كل يوم لتغطية الأحداث، مدفوعًا بشعور داخلي بالمسؤولية تجاه المدينة وأهلها. لم تكن عيناه تفارقان المكان؛ تراقبان التفاصيل الصغيرة: طفل يعبر الشارع مسرعًا، امرأة تحمل جالون ماء، رجل يقف قرب جدار مهدّم، وكأنه ينتظر شيئًا لا يأتي.

كان كل يوم اختبارًا حقيقيًا للبقاء على قيد الحياة. لم يكن الخطر مرتبطًا بلحظة التصوير فقط، وإنما بكل ما يسبقها ويليها. لذلك تعلّم وليد، مثل غيره من الصحفيين، كيف يصوّر بسرعة، وكيف يختار الزاوية التي تمنحه لقطة جيدة دون أن تكشف موقعه. تعلّم أن يراقب إيقاع القصف، وأن يميّز بين صوت قذيفة بعيدة وأخرى قريبة، وأن يعرف متى يتراجع، ومتى يتقدّم خطوة إضافية.

قبل أن يخرج للتصوير، كان وليد يتعامل مع استعداداته وكأنها طقس نجاة. يتفقد أدواته بعناية، ويفحص شحن بطارية الكاميرا أكثر من مرة، ويتأكد من وجود بطاقة ذاكرة فارغة، وكأن امتلائها قد يعني ضياع قصة أو شهادة. يراجع في ذهنه الطريق الذي سيسلكه، والأماكن التي يمكن الاحتماء بها، ويودّع بيته دون يقين كامل بالعودة. في مدينة مثل تعز، كانت هذه الاحتياطات ضرورية، حيث يمكن للحظة واحدة أن تغيّر كل شيء.

في البداية، كانت خطوات وليد الأولى في الصحافة بسيطة، تكاد تشبه أي بداية لشاب يحاول أن يجد له مكانًا في مهنة شاقة. كان يغطي الأخبار المحلية، ويتنقّل بين الفعاليات الصغيرة، والبيانات، وحوادث المدينة اليومية. لم تكن تلك التغطيات تحمل طابع الخطر المباشر، لكنها كانت بوابته الأولى لفهم المكان والناس، ولتعلّم كيف يرى التفاصيل التي لا ينتبه لها الآخرون. ومع الوقت، لم تعد الأخبار العاجلة وحدها كافية لإشباع رغبته في نقل الحقيقة، فبدأ يتجه نحو ما هو أعمق وأكثر وجعًا: آثار النزوح، ومخيمات المدنيين، والأحياء التي طالها القصف حتى فقدت ملامحها الأولى.

كان وليد يدخل الأحياء المدمَّرة كما لو أنه يدخل ذاكرة المدينة الجريحة. يراقب كل زاوية، وكل شارع ضيق، وكل بيت تهدّم نصفه وبقي نصفه الآخر شاهدًا صامتًا على ماحدث. كان يبحث بعدسته عن الحكايات المختبئة بين الركام: نافذة بلا جدار، لعبة طفل مدفونة تحت الغبار، باب ما زال مواربًا، وكأن أهله سيعودون في أي لحظة. لم يكن همّه التقاط صورة جميلة بقدر ما كان همّه أن ينقل الحقيقة كما هي، بلا تزييف ولا مبالغة؛ حقيقة مدينة تتآكل يومًا بعد يوم تحت وطأة الحرب.

ومع مرور الوقت، أصبح الخطر جزءًا من يومياته. لم يعد القصف صوتًا مفاجئًا، ولا الرصاص حدثًا استثنائيًا. كان يعرف أن عمله يقوده إلى أماكن لا تشبه الحياة، لكنه كان يؤمن أن هذه الأماكن تحديدًا تحتاج لمن يوثّقها. إلى أن جاء يوم السادس والعشرين من مايو عام ألفين وسبعة عشر، اليوم الذي سيظل محفورًا في ذاكرته كخط فاصل لا يمكن تجاوزه؛ يوم لا يشبه أي يوم آخر مرّ عليه، يوم انقسمت فيه حياته إلى ما قبل وما بعد، دون مقدمات، ودون أن يمنحه فرصة للاستعداد.

تفاصيل من الواقعة

في صباح ذلك اليوم، خرج وليد ليؤدي عمله الصحفي في الجبهة الشرقية لمدينة تعز، برفقة مجموعة من زملائه الإعلاميين. لم يكن مخططًا أن يتواجدوا في خطوط التماس أو في مناطق اشتباك مباشر. كان الاتفاق أن يتوجهوا إلى منطقة الكدحة لتصوير مخيمات النزوح، حيث تتكدّس معاناة المدنيين في خيام مهترئة، وتُختصر الحرب في وجوه أطفال ونساء فقدوا كل شيء. لكن في مدينة مثل تعز، لا تسير الأمور دائمًا وفق الخطة؛ فالقصف والحصار يفرضان حضورهما على كل شيء، ويجعلان من الخط الفاصل بين الجبهة والحي السكني خطًا هشًا يمكن أن ينهار في أي لحظة.

حمل وليد كاميرته، ومشى وهو يراقب المشهد بعين المصوّر وقلب الإنسان. كان يوثّق آثار المواجهات التي مرّوا بها في الطريق، يلتقط صور الدمار، ويراقب حركة المكان بحذر. كان يبحث عن لحظة صدق وسط فوضى الحرب، لحظة تختصر ما تعجز الكلمات عن وصفه. لم يكن يدري أن تلك اللحظات الهادئة نسبيًا كانت تخفي خلفها انفجارًا سيغيّر كل شيء.

دوّى الانفجار فجأة، بلا إنذار. في ثوانٍ قليلة، انقلب المشهد رأسًا على عقب. سقطت قذيفة حوثية قرب مجموعة الإعلاميين، فتحوّلت اللحظة إلى فوضى كاملة. غبار كثيف غطّى المكان، وأصوات صراخ، وشظايا تطايرت في كل اتجاه. سقط وليد على ظهره، وارتطم جسده بالأرض بعنف، ولم يشعر في البداية بأي ألم. كان كل شيء من حوله ضبابيًا، كأن الزمن توقّف لثوانٍ قصيرة.

حاول أن ينهض، لكن جسده لم يستجب. رفع رأسه ببطء، ونظر إلى ساقه، وهناك واجه الحقيقة القاسية. كانت قدمه معلقة بما تبقى من الجلد، والعظم ظاهرًا بوضوح؛ مشهد لا يمكن للعقل أن يستوعبه بسهولة. في تلك اللحظة، انفجر الألم دفعة واحدة، وبدأ وليد يصرخ طالبًا المساعدة، صراخًا امتزج فيه الخوف بالذهول وعدم التصديق.

في الدقائق الأولى بعد إصابته، اعتقد وليد أنه المصاب الوحيد. لم يكن يرى بوضوح وسط الغبار والارتباك. نُقل مع آخرين إلى غرفة خلفية لتلقي الإسعافات الأولية، وهناك بدأت الصورة تتضح شيئًا فشيئًا. نظر وليد إلى يساره، فشاهد أحد زملائه ملقى على الأرض، يتنفس بصعوبة، ويصارع لحظاته الأخيرة. كانت حالته حرجة إلى حدٍّ لا يخفى على أحد. مرّت دقائق قليلة، ثقيلة وبطيئة، قبل أن يفارق الحياة أمام عينيه.

نُقل وليد بعد ذلك على عجل إلى المستشفى، في رحلة لم يكن يدرك تفاصيلها كاملة؛ فقد كان جسده غارقًا في الألم، وعقله مثقلًا بالصدمة. كانت ساقه قد بُترت فعليًا بفعل شظية القذيفة في موقع الانفجار، الإصابة، كما سيتّضح لاحقًا، كانت أسفل الركبة، لكن الأطباء اتخذوا قرارًا قاسيًا: بتر الساق من فوق الركبة.

في تلك الفترة، كانت المستشفيات في تعز تعمل فوق طاقتها القصوى. الممرات مكتظّة بالجرحى، وغرف العمليات لا تهدأ، والأطباء يضطرون إلى اتخاذ قرارات سريعة وحاسمة بين الحياة والموت. في هذا السياق، كان البتر خيارًا متكررًا لوقف النزيف وإنقاذ ما يمكن إنقاذه. جسد وليد لم يكن يحتمل مزيدًا من التأخير، والحرب لم تترك مجالًا لحلول مثالية.

في غرفة المستشفى، زار وليد والده وأخوه. كان المشهد ثقيلاً، أكبر من قدرة الكلمات على احتماله. كان أخوه الأكبر يبكي بحرقة، وبدت ملامح والده منكسرة، كأن الزمن توقّف عند تلك اللحظة. وليد، رغم ألمه، حاول أن يكون أكثر تماسُكًا منهم. لم يشأ أن يرى الانهيار في أعينهم، فوجد نفسه يواسيهم بدلًا من أن يُواسى. أدرك وليد أن فقدان ساقه حقيقة لا يمكن تغييرها، لكن انهيار من حوله سيضاعف الخسارة. يتذكر وليد تلك اللحظات : "كان أخي يبكي بحرقة، وكذلك والدي. قلت لوالدي إن البكاء لن يعيد لي ساقي. لم أرد لهم أن ينهاروا". بعد تلك الزيارة القصيرة، نُقل لإجراء الفحوصات اللازمة، ثم أُدخل غرفة العمليات، حيث سيُحسم مصير جزء من جسده إلى الأبد.

حياة جديدة

عندما استيقظ بعد العملية، لم يكن الألم أول ما شعر به، انما فراغ غريب؛ فراغ في الجسد، وفراغ أكبر في الفكرة. كانت تلك اللحظة بداية فصل جديد من حياته، فصل لم يختره ولم يستعد له. يشرح ذلك وليد: " أن تصحو وقد فقدت ساقك، يعني أن تعيد تعريف كل شيء من حولك: جسدك، وحركتك، وعملك، وحتى صورتك عن نفسك. تفاصيل الحياة اليومية التي كانت بسيطة أصبحت معقّدة؛ النهوض، والمشي، وركوب السيارة، كلها أفعال باتت تحتاج إلى جهد وتخطيط".

انعكس ذلك بشكل مباشر على عمله الصحفي. لم تعد الحركة سهلة، ولم يعد التنقّل بين المواقع أمرًا بديهيًا. كثير من المهام الميدانية التي تتطلب سرعة وحضورًا جسديًا مستمرًا أصبحت خارج قدرته. ومع تطوّر أدوات التصوير الرقمي، التي باتت تعتمد على الحركة والديناميكية، تقلّصت فرصه المهنية بشكل ملحوظ.

ومع ذلك، لم يسمح وليد لليأس أن يكون خاتمة القصة. كان العمل بالنسبة له أكثر من مصدر رزق؛ كان وسيلته للتعافي، واستعادة ذاته التي حاولت الحرب كسرها. وفي خضم هذه المرحلة الصعبة، وجد دافعًا جديدًا للحياة. ففي اليوم الخامس من إصابته، وهو لا يزال على سرير المستشفى يتلقى العلاج، أعلن خطوبته. كان ذلك القرار أشبه بإعلان تحدٍّ للحرب، وتمسّكًا بالحياة في أكثر لحظاتها قسوة.

هذا الالتزام الجديد منحه دافعًا إضافيًا للعودة إلى سوق العمل، رغم كل الصعوبات. واجه تحدّيات كبيرة في التنقّل والحركة، لكنه اختار أن يبحث عن بدائل بدلًا من الاستسلام. اتجه إلى التصوير باستخدام الطائرات المسيرة (Drones)، وبدأ بتطوير مهاراته في هذا المجال، متعلّمًا أدوات جديدة، ومفتحًا لنفسه نافذة مختلفة على الصورة. منذ عام ٢٠١٩، شارك في تصوير تسعة أعمال درامية، إلى جانب عدد من البرامج والقصص الإنسانية، مثبتًا أن الإعاقة كانت منعطفا في طريق أعاد تشكيله.

SAM Rights & Liberties
رابطة أمهات المختطفين Abductees' Mothers Association
Justice4Yemen Pact ميثاق العدالة لليمن
DT Institute

ظلّ التصوير شغف وليد الأول والأخير. كانت الكاميرا رفيقته الدائمة، ووسيلته لإيصال الحقيقة، وامتدادًا لذاته التي لم تنكسر. ومع مرور الوقت، أصبحت أقرب إليه من أي وقت مضى، حتى بات ينظر إليها كما لو كانت كائنًا حيًا: "الكاميرا ما زالت وسيلتي لإيصال الرسالة، وأصبحت متعلقا بها بشدة"، يقول وليد، مضيفًا أنها أصبحت أقرب إليه من أي وقت مضى، حتى بات يصفها بأنها طفله الثالث.

في الطريق الذي أعاد فيه وليد بناء علاقته بجسده وبالعالم، لم يقتصر حضوره على العودة إلى العمل الصحفي، بل اتجه إلى فتح مساحات جديدة للحياة، وكأنه يعيد تشكيل نفسه من جديد. بحث عن طرق مختلفة ليؤكّد حضوره وقدرته على الاستمرار، فكانت مشاركته في منتخب اليمن لكرة القدم لذوي البتر واحدة من أكثر التجارب تأثيرًا في مسيرته. دخول الملعب، والركض بساق واحدة، والاعتماد على توازن جديد للجسد، كل ذلك شكّل مواجهة مباشرة مع الفقد. في تلك المساحة، لم يكن وليد مصوّرًا صحفيًا ولا ضحية حرب؛ كان لاعبًا ضمن فريق، يتقاسم الجهد والتعب والانتصار مع آخرين حملت أجسادهم آثارًا مشابهة للحرب.

أعادت هذه التجربة إليه ثقة افتقدها طويلًا، ثقة نابعة من قدرته على التكيّف وإعادة تعريف حدود الجسد. ومع مرور الوقت، أصبح وليد أيضًا ممثلًا إعلاميًا لاتحاد كرة القدم لذوي البتر، مستثمرًا خبرته الصحفية في نقل قضايا اللاعبين وتسليط الضوء على تجاربهم. لم يكن صوته في هذا الدور فرديًا، إنما امتدادًا لأصوات كثيرة وجدت في الرياضة مساحة للخروج من دائرة الشفقة إلى دائرة الاعتراف والكرامة.

وبالتوازي مع ذلك، تعمّق حضور وليد في العمل الحقوقي، وتولّى مهام الأمين العام لرابطة ضحايا الألغام ومخلفات الحروب . لم يكن هذا الموقع منصبًا إداريًا بقدر ما كان امتدادًا لتجربة شخصية عاش تفاصيلها بكل ما فيها من ألم وفقد. داخل الرابطة، تعامل مع الضحايا بوصفهم حكايات حيّة لا أرقامًا في تقارير. كان يستمع إلى قصصهم، ويرى في وجوههم انعكاسًا لتجربته، ويعمل على تحويل الألم الفردي إلى قضية عامة تستحق الاعتراف والإنصاف.

عام ٢٠١٧، الذي شكّل نقطة تحوّل في حياة وليد، يُعد لدى كثير من الصحفيين والحقوقيين اليمنيين أحد أخطر الأعوام على الصحافة في اليمن عمومًا، وفي تعز على وجه الخصوص. فالمدينة كانت آنذاك مسرحًا مفتوحًا للصراع، مما جعل الصحفي هدفًا مباشرًا، سواء بسبب وجوده في الميدان أو بسبب الصورة التي ينقلها.

في النصف الأول من ذلك العام، وثّقت نقابة الصحفيين اليمنيين أكثر من مئة وثلاثين حالة انتهاك للحريات الإعلامية. شملت هذه الانتهاكات القتل، التهديد، الاعتداء الجسدي، التحريض، مصادرة المعدات، تعطيل العمل الإعلامي، والاحتجاز. هذه الأرقام كانت مؤشرًا واضحًا على واقع بالغ القسوة، مؤشرًا يؤكد أن الصحافة في اليمن كانت تمارس في بيئة عدائية لا توفر أي حماية للعاملين فيها.

عدم تكرار المأساة

مع مرور السنوات، بات وليد ينظر إلى إصابته باعتبارها جزءًا من هذا السياق الواسع من الانتهاكات التي طالت الصحفيين والمدنيين معًا. ما حدث له لم يكن حادثًا معزولًا، كان نتيجة طبيعية لحرب لم تفرّق بين من يحمل سلاحًا ومن يحمل كاميرا. هذا الإدراك دفعه إلى التساؤل حول مصير الضحايا بعد توقف المعارك، حول مصير الأجساد التي فقدت أجزاء منها، والذاكرة التي حملت مشاهد لا تمحى.

في نظر وليد، العدالة مفهوم بسيط في جوهره، ثقيل في معناه. ترتبط العدالة لديه باستعادة ما سُلب ويعني بذلك قدمه المبتور، وبمنع تكرار الفقد، وبضمان ألا تتحول المآسي الفردية إلى قدر متكرر. "العدالة الحقيقية بالنسبة لي أن تعود قدمي"، يقول وليد، قبل أن يضيف بهدوء: "وأنا أعرف أن هذا غير ممكن". لذلك، يربط وليد العدالة، بمنع تكرار المأساة.

يتطلع وليد إلى يوم تتوقف فيه الحرب، ويُفتح فيه مسار للمساءلة، وتُقدَّم فيه الجرائم إلى محاكمات عادلة. بالنسبة له، لا يمكن بناء مستقبل آمن دون الاعتراف بما حدث، ودون إنصاف من دفعوا أثمان الحرب من أجسادهم وأعمارهم.

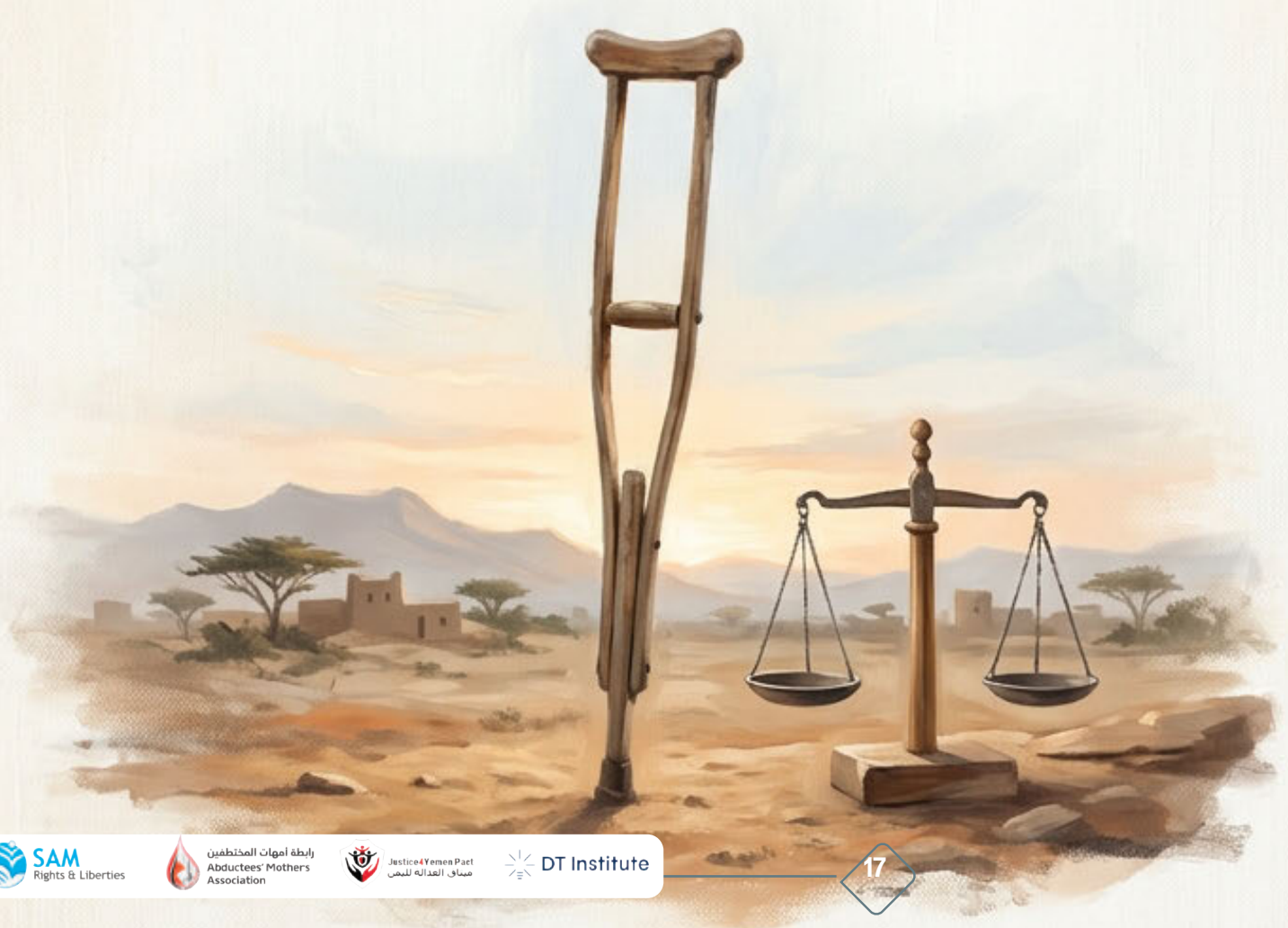

هديل... الحرب سلبتها أطرافها

تنهض هديل محمود، كل صباح وهي تعيد ترتيب تفاصيل يومها كما لو أنها تعلّمت الحياة من جديد. بعد أن سلبتها الحرب ذراعيها لتبدأ بذلك حكاية ترفض هديل أن تكون الحرب هي الكلمة الأخيرة فيها.

في الرابع من يوليو/تموز عام 2017، كانت هديل، طفلة في الثانية عشر من عمرها، تعيش برفقة والداها في منطقة الكدحة وكانت ذاهبة لرعي غنمها بالقرب من منزلها، واقتلاع التين الشوكي، كانت تلعب وترعى في مكان تعرفه جيداً، قبل أن تنفجر اللحظة فجأة وتسقط قذيفة حوثية في المكان. بعد ذلك، ينقطع كل شيء في ذاكرتها، كأن الزمن قرر أن يتوقف عند تلك النقطة.

لا تتذكر هديل ما حدث بعدها: لا صوت الانفجار، ولا صرخات الناس، ولا كيف سقطت على الأرض. تقول إنها لم تشعر بشيء، ولم تكن تدرك ما الذي جرى لها. كانت تلك المساحة الفارغة في الذاكرة أشبه بفراغ كبير ابتلع تفاصيل اللحظة، تاركًا أثره لاحقًا على الجسد والروح، "لا أعرف كيف وصلت إلى المستشفى"، تقول هديل، "ولا من حملني، ولا كم مرّ من الوقت. كل ما أتذكره أنني فتحت عيني فوجدت أمي تبكي بجانبي."

ما تتذكره هديل بوضوح هو أول مشهد حين فتحت عينيها. كانت ترى وجه أمها القريب، وعيناها ممتلئتان بالدموع، وخالها يقف بجانبها في صمت ثقيل. كان البكاء حاضرًا في الغرفة . حاولت هديل أن تفهم ما الذي يحدث، أن تلتقط تفسيرًا من الوجوه المحيطة بها. نظرت إلى جسدها، فرأت الضمادات الكثيفة تلف المكان الذي كانت فيه ذراعاها. في تلك اللحظة، لم تستوعب حجم الفقد، ولم يكن عقلها قد وصل بعد إلى حقيقة ما جرى.

الصمت كان سيد الموقف، لم يخبرها أحد بما حدث، كأن الجميع يخشى أن يكون أول من ينطق بالحقيقة. هديل، التي اعتادت أن تطرح الأسئلة، بدأت تسأل. كان سؤالها بسيطًا ومباشرًا: أين ذراعاي؟ لم تحصل على إجابة واضحة. تتذكر هديل تلك اللحظة قائلة: "سألتهم: أين ذراعاي؟ لماذا لا أستطيع تحريك يديّ؟ لكن لا أحد أجابني. كانوا ينظرون إليّ فقط ويبكون." كانت النظرات تنكسر قبل أن تصل إلى كلمات، والدموع تسبق أي محاولة للشرح. حينها بدأت تدرك هديل أن شيئًا ما قد تغيّر إلى الأبد.

لم تكن هديل تفكر في الحرب، ولا في القذيفة، ولا في من أطلقها. كانت تفكر في يدين غابتا، وفي حياة جديدة تحمل كما كبيرًا من المعاناة قد تجسدت لها. لم يكن الألم الجسدي ما يشغل تفكير هديل، بقدر ما كان المستقبل بكل ثقله وغموضه. الأسئلة كانت تتزاحم في رأسها بلا توقف، أسئلة بسيطة في ظاهرها، قاسية في معناها: كيف ستأكل؟ كيف ستكتب؟ كيف ستلعب، كيف ستعيش حياة عادية دون ذراعين؟ تشرح هديل ما كان يدور في رأسها: "كنت أفكر: كيف سأعيش هكذا؟ من سيطعمني؟ من سيساعدني طوال الوقت؟ كنت أخاف أن أكون عبئًا على أمي وعلى كل من حولي."

مرت أيام المستشفى ببطء شديد، كأن الزمن فقد معناه. الجدران البيضاء، رائحة الأدوية، وأصوات الأجهزة الطبية شكّلت عالمًا مغلقًا لا يتغير. كانت أمها وخالها إلى جانبها أغلب الوقت، يحاولان إخفاء ألمهما خلف كلمات مطمئنة وابتسامات متعبة. ومع ذلك، كان اليأس يتسلل إلى قلب هديل بهدوء، دون ضجيج. في تلك الفترة، تعترف هديل اليوم بصراحة: "في تلك الأيام تمنيت الموت. لم أكن أرى معنى للحياة دون يدين. كنت أظن أن حياتي انتهت هناك.". لم يكن ذلك بدافع ضعف، بل نتيجة شعور طاغٍ بالعجز. كانت تعتمد على يديها في كل تفاصيل حياتها، في أبسط الأشياء وأكثرها خصوصية، وفجأة وجدت نفسها محرومة منهما. لم تعد ترى معنى واضحًا للحياة، ولم تكن قادرة على تخيّل شكل الأيام القادمة.

مواجهة مع المستقبل

عادت هديل إلى المنزل، حاولت في البداية إنجاز واجباتها باستخدام قدمها. كانت تجلس لساعات طويلة تحاول أن ترسم الحروف ببطء شديد، لكن النتيجة كانت محبطة: الخط غير مفهوم، والجهد مضاعف، والإحباط يتكرر في كل مرة. مع ذلك، لم تستسلم. بعد محاولات فاشلة، توقفت قليلًا وأعادت التفكير، واتخذت قرارًا بسيطًا في شكله، كبيرًا في أثره: "سأكتب بما تبقى من يدي".

كانت البداية شاقة. الإمساك بالقلم لم يكن طبيعيًا، والحروف كانت متعثرة، والخط بالكاد يُقرأ. كانت تستغرق وقتًا طويلًا لإنجاز سطر واحد، وتعيد المحاولة مرات عديدة. مع ذلك، وجدت دعمًا حقيقيًا من أمها وأهلها، الذين لم يملّوا من التشجيع والمساندة. المعلمون بدورهم أظهروا تفهمًا لحالتها، ومنحوها الوقت والمساحة لتتعلم بطريقتها الخاصة. هذا الدعم صنع فرقًا واضحًا في نفسيتها، وجعلها تشعر بأنها ليست وحدها في هذه الرحلة.

شيئًا فشيئًا، بدأت هديل تعتمد على نفسها. لم يكن التقدم سريعًا، لكنه كان ثابتًا. كل كلمة تكتبها كانت انتصارًا صغيرًا تشعر به، وكل واجب تنهيه كان دليلًا لها على قدرتها على الاستمرار. أكملت دراستها الثانوية رغم الصعوبات، وتمكنت في النهاية من التخرج بتفوق، لتؤكد لنفسها قبل الآخرين أنها قادرة على النجاح رغم كل التحديات.

بعد المرحلة الثانوية، لم تفكر هديل في التوقف. قررت دراسة الحاسوب والسعي للحصول على الرخصة الدولية. هذا القرار قوبل بتشكيك جديد من المحيطين بها، الذين كانوا يقولون إن الحاسوب يحتاج عشرة أصابع، وأنها لا تملك حتى إصبعًا واحدًا. لكن هذه الكلمات لم تُضعف عزيمتها، و دفعتها بإصرار أكبر. قررت أن تثبت العكس بالفعل لا بالكلام. واجهت الصعوبة من جديد، وتعلمت استخدام الحاسوب بطريقتها الخاصة، واستطاعت أن تتقن المهارات المطلوبة، حتى تخرجت بتقدير امتياز.

لاحقًا، اتخذت خطوة أخرى أكثر جرأة، فالتحقت بالجامعة واختارت دراسة الإعلام. مرة أخرى، وجدت نفسها أمام تساؤلات حول قدرتها على الاستمرار في تخصص يتطلب جهدًا عمليًا وحضورًا دائمًا. ردها كان بسيطًا وواضحًا: " أنا أحب هذا التخصص، وسأثبت أنني قادرة". هذا الإيمان الداخلي كان دافعها الأساسي للاستمرار. اليوم، تواصل هديل دراستها الجامعية في المستوى الثاني، ماضية في طريقها بثبات، حاملة قصة كفاح تؤكد من خلالها أن الإرادة قادرة على إعادة تعريف الممكن، حتى في أكثر الظروف قسوة.

ترى هديل أن الإعاقة لا تُقاس بما يفقده الجسد، بل بما يستسلم له العقل. هذه القناعة تشكّلت لديها عبر سنوات من المواجهة اليومية مع الألم، ومع نظرات المجتمع، ومع الخوف الذي حاول أن يفرض نفسه عليها. تؤمن هديل أن الإنسان حين يقرر السقوط، يسقط كاملًا، وحين يقرر الوقوف، فإن الجسد يجد طريقه للحياة مهما كان مثقلًا بالخسارات. لذلك، تنظر إلى ذراعيها الغائبتين بوصفهمت بداية لمسؤولية أكبر تجاه نفسها وتجاه الآخرين الذين يعيشون ظروفًا مشابهة.

تحدٍ للإعاقة ومطالبة بالعدالة

لا ترى هديل أن دورها يقتصر على النجاح الدراسي أو المهني فقط. النجاح بالنسبة لها أصبح وسيلة لتغيير صورة راسخة في أذهان كثيرين، صورة تختزل الأشخاص ذوي الإعاقة في كونهم عبئًا أو حالة شفقة دائمة. تسعى، من خلال تجربتها، إلى إثبات أن القدرة لا تُقاس بعدد الأطراف، وأن الاستقلالية ممكنة حين يُمنح الإنسان الفرصة والدعم. ترى أن المجتمع حين يغيّر نظرته، يفتح الأبواب أمام طاقات كانت محاصرة بالخوف والأحكام المسبقة، وتؤمن أن قصتها نموذجًا يمكن أن يتكرر إذا توفرت الإرادة.

حين تتحدث هديل عن العدالة، تفعل ذلك بوضوح خالٍ من الشعارات. العدالة في نظرها تبدأ بالاعتراف بما حدث، وبمسؤولية الحرب عن تشويه حياتها وحياة آلاف آخرين. تطالب بالتعويض بوصفه حقًا، لا منّة، وترى أن وقف الحرب هو الخطوة الأولى نحو أي معنى حقيقي للإنصاف. تفكر في الأطراف الصناعية كحد أدنى مما يمكن تقديمه، رغم إدراكها العميق بأن هذه الأطراف لن تعيد لها ذراعيها، ولن تمحو الذاكرة الثقيلة للأيام الأولى بعد الإصابة. مع ذلك، ترى فيها وسيلة تساعدها على الاستقلال أكثر، وتخفف بعض الأعباء اليومية التي ما زالت ترافقها.

لا تزال هديل حتى اليوم تشعر بثقل نظرة الشفقة، تلك النظرة التي لا تُقال بالكلمات، لكنها تُقرأ في العيون، وتُشعرها أحيانًا بأنها مُحاطة بعاطفة ناقصة، لا ترى قوتها بقدر ما ترى فقدانها. هذا الإحساس يرهقها نفسيًا، ويجعلها تفكر كثيرًا في أمها، التي تحملت معها عبئًا مضاعفًا. تشعر هديل بحزن عميق لأنها ترى الخوف في عيني أمها، خوفًا دائمًا من المستقبل، ومن قدرة ابنتها على مواجهة العالم وحدها. هذا الشعور بالذنب يرافقها أحيانًا، رغم معرفتها بأن ما حدث لم يكن خيارها، ولا ذنبها. تتمنى هديل لو بإمكانها تعويض أمها عن مابذلته من أجلها.

تتجاوز هديل تجربتها الفردية لتضعها في سياق أوسع. ترى نفسها جزءًا من جيل كامل تضرر من الحرب، جيل سُرقت منه سنوات الدراسة، وتبدلت فيه الأحلام إلى محاولات للبقاء. تتحدث عن أطفال فقدوا أطرافهم قبل أن يعرفوا معنى اللعب، وعن مدارس أُغلقت، وطرق قُطعت، ومستقبل أصبح معلقًا على توقف الصراع. الحرب، في نظرها، سرقت أجزاء من جسدها، وفوق ذلك سلبت الإحساس بالأمان، وفرضت على الناس حياة لم يختاروها.

تأمل هديل أن تتوقف الحرب، وأن يعود الناس إلى حياتهم الطبيعية، وأن يكبر الأطفال وهم يحملون دفاترهم لا جراحهم. تحلم بيمن يعيش فيه الناس دون خوف من قذيفة عابرة، ودون أن يُجبر أحد على دفع ثمن صراع لم يكن له يد فيه. بالنسبة لها، السلام ليس فرصة للحياة، وفرصة لأن يكتب الجيل القادم قصصه دون أن تبدأ بالفقد.

''''

بشير.. في انتظار ابنه المخفي

"لو قالوا لي إنه حي، سأنتظر. ولو قالوا لي إنه ميت، سأبكي وأرضى بقضاء الله. لكن أن يظل غائبًا هكذا، بلا خبر، بلا أثر... هذا هو العذاب الحقيقي". بهذه الكلمات، التي خرجت بصوت متعب ومتهدج، يلخص بشير مقبل سنوات طويلة من الانتظار القاسي، انتظار يشبه الوقوف في منتصف طريق بلا نهاية.

في كل صباح، يستيقظ بشير وهو يحمل السؤال نفسه: أين ولدي محمد؟ وفي كل مساء، يعود السؤال أكثر ثقلًا، بعدما يخيب الأمل مرة أخرى.

لحظة الغياب

في مساء التاسع من أغسطس/آب 2018، خرج محمد بشير محمد عبده مقبل من المنزل متجهًا إلى حي العسكري في مدينة تعز. لم يكن في خروجه ما يثير القلق. شاب في الثانية والعشرين من عمره، يعمل في ورشة للحديد في حارة (القبة) في مديرية القاهرة. حياته بسيطة ومنتظمة؛ يبدأ عمله من الثامنة صباحًا حتى الثانية عشرة ظهرًا، ثم يعود في الفترة المسائية من الثانية حتى السادسة، قبل أن يتجه إلى البيت مع غروب الشمس.

في أيام الجمعة، اعتاد محمد زيارة خالته أو قضاء بعض الوقت مع أبناء الحارة التي نشأ فيها منذ طفولته. حي العسكري لم يكن غريبًا عنه، مكانًا يعرفه جيدًا، ويحفظ تفاصيله الصغيرة، وأزقته، ووجوه الناس فيه.

لكن ذلك اليوم لم ينتهِ كما كل الأيام.

مع حلول الليل، لاحظ والده أن محمد لم يعد. في البداية، حاول طمأنة نفسه؛ ربما تأخر بسبب إغلاق الطرقات أو بسبب الاشتباكات المتكررة. في تلك الفترة، كانت الأوضاع الأمنية في تعز متوترة، والاشتباكات تندلع فجأة، خصوصًا في مناطق مثل العسكري والجحملية.

مرت الساعات، ولم يصل محمد. "الطريق كانت مغلقة، والاشتباكات متواصلة"، يتذكر بشير. "ما قدرت أتحرك، ولا أعرف أسأل حد". في تلك الليلة، لم ينم أحد في البيت. انتظروا اتصالًا، رسالة، أي إشارة تطمئنهم. لكن لم يصل أي شيء.

البحث الأول والصدمة الأولى

في اليوم التالي، بدأ الأب رحلة البحث. سأل الجيران، الأصدقاء، أصحاب محمد في العمل. لا أحد رآه يعود. لا أحد يعرف أين اختفى. ومع مرور الأيام، بدأ القلق يتحول إلى خوف حقيقي.

"دورت في كل مكان"، يقول بشير. "ذهبت لعند ناس، سألت ودورت كثير... لكنني لم ألقى أي أثر".

في البداية، لم يكن لدى الأسرة أي معلومة عن اعتقال أو احتجاز. لم يكن هناك بلاغ رسمي، ولا جهة تعترف بأنها أخذت محمد. فقط اختفى ببساطة.

بعد أسابيع من التيه، توجه الأب إلى شخصيات عسكرية، من بينهم وهيب الهوري، الذي وبحسب حديث الأب نفى مسؤوليته عن أي مداهمة في المنطقة، وأشار إلى أن الجهة التي داهمت حي العسكري آنذاك هي مجموعة بقيادة ضابط يدعى ياسر العاقل، أحد قيادات اللواء 22 ميكا والمسؤول عن القطاع الأول في تلك الفترة.

نصحه البعض بالتوجه إلى منظمات حقوقية، علّها تملك القدرة على التوثيق والمتابعة.

بداية الطريق الحقوقي

في اللجنة الوطنية للتحقيق في ادعاءات انتهاكات حقوق الإنسان، وثّق بشير واقعة اختفاء ابنه. فتح ملفًا، وقدم إفادته، وأصبح اسم محمد رقمًا في سجل طويل من الانتهاكات. لكنه بالنسبة للأب، لم يكن رقمًا، إنما حياة كاملة معلقة.

ظل الأب يتابع اللجنة باستمرار، يسأل، يراجع، ينتظر. وفي إحدى المرات، بعد نحو شهرين من اختفاء محمد، تلقى اتصالًا من إحدى العاملات في اللجنة. أخبرته بوجود شاهد في واقعة اختفاء ابنه. لم يكن الشاهد شخصًا غريبًا. كان أبًا آخر، يعيش المأساة نفسها.

تبين أن ابن الشاهد، أحمد عصام، اختفى في التوقيت والمكان نفسيهما، وأن الشابين كانا معًا لحظة الاعتقال. لاحقًا، أكدت شهادات أخرى أن محمد لم يختفِ صدفة، بل اعتُقل خلال مداهمة مسلحة.

ما الذي حدث تلك الليلة؟

بحسب التقرير الحقوقي الصادر لاحقًا، وفي تمام الساعة السابعة والنصف مساءً من يوم 9 أغسطس 2018، داهمت مجموعة مسلحة تابعة للواء 22 ميكا مبنى قناة السعيدة في حي العسكري، حيث كانت أسرة نازحة تقيم هناك.

خلال المداهمة، اعتُقل محمد بشير، إلى جانب أحمد عصام ووالده عصام الأغبري، وعدد من أفراد الأسرة، بينهم نساء وأطفال. جرى اقتيادهم إلى مقر قيادة اللواء قرب جامع بازرعة. في مقر الاحتجاز، تعرض محمد لتعذيب شديد. تشير إفادات الشهود إلى أنه تعرض للضرب المبرح، وتم قطع أصابع من يده، إضافة إلى وخزه بالإبر في أماكن متفرقة من جسده أثناء التحقيق.

في صباح اليوم التالي، أُفرج عن عصام الأغبري وأسرته، مع تحذيرهم من العودة إلى حي العسكري. لكن محمد وأحمد بقيا محتجزين. ثمانية أيام لاحقة، نُقل الشابان إلى مكان مجهول، ومنذ ذلك الحين، انقطعت أخبارهما تمامًا.

الغياب ينهش العائلة

لم يكن اختفاء محمد حدثًا عابرًا في حياة أسرته. كان زلزالًا غيّر كل شيء. "أنا كنت مريض من قبل"، يقول بشير، "لكن بعد ما اختفى ولدي، زاد مرضي أكثر. صرت آخذ أدوية زيادة، وتعبت نفسيًا".

تأثرت الأم بشدة. لم تعد كما كانت. صمتها صار أطول، ودموعها أقرب. إخوة محمد تركوا الدراسة لفترات، بعدما أثقلهم القلق والحزن. البيت الذي كان يعج بالحياة، صار مثقلًا بالصمت والانتظار. الأصعب من كل ذلك، أن محمد كان يعاني من مرض السكري، ويحتاج إلى الإنسولين بانتظام. "كنت أفكر دايمًا" ، يقول الأب، "هل معه علاجه؟ هل يعطوه الإنسولين؟ هل جسمه يتحمل؟".

مرت السنوات، ولم يتغير شيء. لا اتصال، لا رسالة، لا معلومة مؤكدة. فقط شائعات متناثرة، وأخبار غير موثوقة، تزيد الألم ولا تخففه. طرق الأب كل الأبواب: الشرطة العسكرية، النيابة العامة، الجهات الرسمية. حمل ملفه معه، كل الوثائق، كل الشهادات. لكن الجدران كانت أعلى من صوته.

في عام 2023، سمع بخبر مقتل الضابط المتهم بقيادة عملية الاعتقال. الخبر لم يمنحه راحة، و زاد من شعوره بالضياع. "حتى لو مات، فين ولدي؟"، يتساءل. "فين الحقيقة؟".

معرفة المصير

بالنسبة لبشير، العدالة ليست كلمة كبيرة ولا فكرة بعيدة. العدالة عنده تبدأ من القلب، من هذا الفراغ الذي تركه محمد في البيت ولم يمتلئ بعد. يقول إنه لا يفهم القوانين، ولا يعرف كيف تُدار الملفات، لكنه يعرف جيدًا معنى أن يستيقظ كل يوم وهو ينتظر خبرًا لا يأتي. العدالة، في نظره، أن ينتهي هذا الانتظار، أن لا يظل معلقًا بين أمل يكذّبه الواقع وخوف ينهشه في الصمت. أحيانًا يتخيل محمد يدخل من الباب فجأة، بنفس ابتسامته، بنفس صوته، ثم يعود إلى الواقع فيجد البيت ساكنًا كما تركه يوم غاب.

لا يطلب بشير اليوم أكثر من الحقيقة. لا يريد أن يسمع وعودًا، ولا أن يُقال له اصبر فقط. يقول إن الصبر يصبح قاسيًا حين لا يُكافأ بشيء، وحين يمر العمر كله وهو واقف في المكان نفسه. يرغب في معرفة أين ذهب ابنه، ماذا حدث له، ولماذا؟

حتى الألم، كما يقول، يمكن احتماله حين يكون واضحًا، لكن الغموض يقتل ببطء. "لو أعرف إنه ميت، أزور قبره، أقرأ له الفاتحة، وأبكي وأرتاح"، يقولها وهو يخفض صوته، "لكن كذا... لا حي ولا ميت".

يشعر بشير أحيانًا أن العالم نسي محمد، وأن الناس اعتادت غيابه أكثر مما ينبغي. يرى أن من العدالة أيضًا أن لا يُنسى ابنه، أن لا يصبح مجرد اسم في ورقة أو رقم في تقرير. العدالة أن يُذكر كإنسان، كشاب خرج من بيته ولم يعد، وترك خلفه أمًا تنتظر، وأبًا يشيب وهو يسأل، وبيتًا تغيّر إلى الأبد. بالنسبة له، الظلم الأكبر ليس ما حدث في تلك الليلة، بقدر استمرار الصمت بعدها، وكأن حياة ابنه لم تكن مهمة بما يكفي ليُسأل عنها.

في هذه الحكايات الخمس، تتجسّد الحرب بوصفها قوةً اقتلعت بشرًا من حياتهم وأعادت تشكيل مصائرهم بالقسر. مصوّرٌ خرج يوثّق الألم فعاد محمولًا بإعاقة دائمة، امرأةٌ أنهكها النزوح وفقدت أهلها وبيتها، طفلةٌ كانت تحلم بدفاتر المدرسة فسبقتها الألغام، أبٌ يعيش عمره معلّقًا على باب انتظارٍ لا يُفتح، ومزارعٌ رأى أرضه تُسلب وبيته يُنسف.

العدالة الانتقالية، في معناها الأعمق، ليست إجراءً قانونيًا باردًا بقدر ماهي وعدٌ أخلاقي بأن ما حدث لن يُطوى بالصمت. هي كشفٌ للحقيقة، ومساءلةٌ للمسؤولين، واعترافٌ بأن هذه الخسارات كانت نتيجة أفعال يجب أن تُسمّى بأسمائها. من دون هذا الاعتراف، يظل الألم معلّقًا، وتبقى الجراح مفتوحة.

ومع ذلك، فإن أي تعويضٍ، مهما بلغ، يظل عاجزًا عن ترميم ما انكسر في الداخل. المال لا يعيد يدًا فقدت، ولا يمحو صورة زميلٍ سقط، ولا يردُّ غائبًا إلى حضن أبيه، ولا يعيد دفءَ بيتٍ هُدم، ولا يعوّض طفولةً سُرقت. جبر الضرر ضرورة، لكنه ليس شفاءً كاملًا؛ هو محاولة لإسناد الحياة كي تستمر، لا وسيلة لإعادة الزمن إلى الوراء. فالأرواح التي مسّها الفقد تبقى تحمل أثره، ولو خفّ وهجه مع السنوات.

إن إنصاف الضحايا يعني أن يُنظر إليهم كأصحاب حقٍّ كامل في الحقيقة والكرامة والذاكرة. يعني أن يُكتب تاريخ هذه المرحلة بأصواتهم، وأن يُصان حقهم في العدالة حتى لو تأخر الطريق إليها.

هكذا، تصبح هذه القصص أكثر من سردٍ للألم؛ إنها دعوة لأن يكون السلام قائمًا على العدالة. حين تُحترم كرامة الضحايا، ويُعترف بخساراتهم، وتُتخذ خطوات جادة لعدم تكرار المأساة، فقط عندها يمكن أن نقول إننا بدأنا فعلًا في ترميم الوطن، حتى وإن ظلّت بعض الأرواح تحمل ندوبها إلى الأبد.

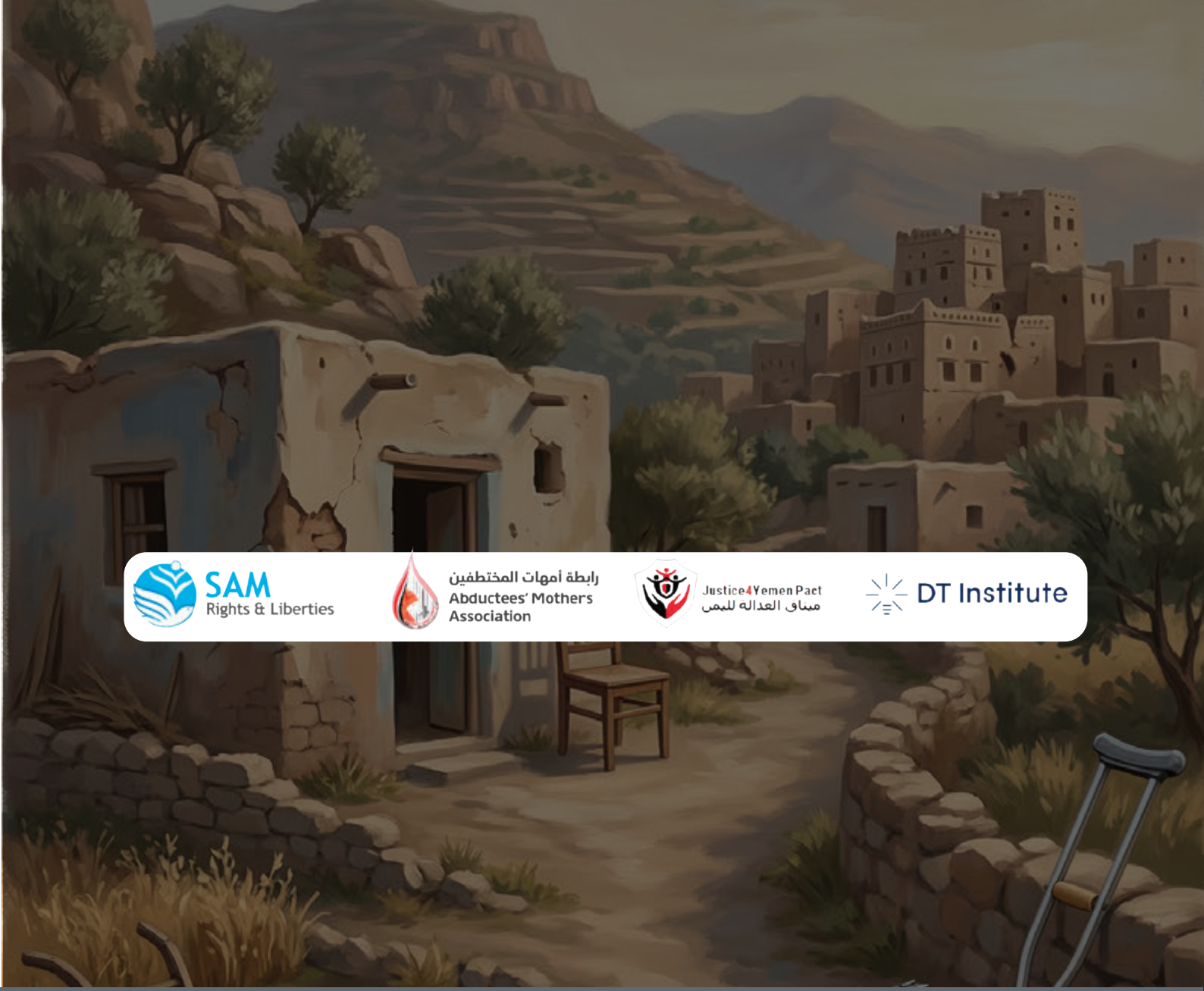

SAM Rights & Liberties

رابطة أمهات المختطفين
Abductees' Mothers Association

Justice4Yemen Pact
ميثاق العدالة لليمن

DT Institute

صوت الناجين ...العدالة بعيونهم

توثيق يحكي قصص ناجين ممن طالتهم آلة الحرب، ومطالبتهم بالعدالة

March 2026

info@samrl.org

www.samrl.org